يَـحْـيَى صُورةُ الإعْجازِ وجِماعُ البِشَارَة قراءة في سيميائية الاسم

محمد بن عبد الله الدوسري
قسم اللغة العربية - جامعة تبوك

المستخلص

تصطبغ سورة مريم -من القرآن الكريم- بصبغتين واضحتين تنتشران في آياتها وما تضمنته من قصص بعض الأنبياء؛ وهما صبغة الرحمة التي تظهر في بدايات السورة حيث قول الله تعالى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿2﴾، وتستمر حتى نهاياتها حيث قوله تعالى: ﴿95﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿96﴾. والصبغة الأخرى صبغةُ الإعجاز التي تُبدأ السورة بها في قوله تعالى: ﴿ كهيعص ﴾، ثم تنتشر علاماتها الصريحة والضمنية في الآيات، خاصة منها ما يتحدث عن قصص الأنبياء، مثل قصة النبيّ زكريا وتبشيره بابنه يحيى، وقصة مريم ابنة عمران وتبشيرها بابنها عيسى ابن مريم، عليهم السلام أجمعين.

ويتركز هذا البحث في قصة زكريا ونزول رحمة الله عليه بصورة إعجازية تجلّت في الاستجابة لندائه، ثم تبشيره باتصال النبوّة في آل يعقوب من خلال ابنه يحيى الذي كانت البشارة به غاية في الإعجاز من حيث وقوعها، ومن حيث نظمها وما تضمنته من كلمات عميقة الدلالة.

ويقوم النظر في قصة زكريا على الاتساق الدلالي القائم على سيميائية الاسم (يحيى) وما يتصل بهذا الاسم من كلمات ذات علاقة وثيقة بها سيميائيًّا، وإيضاح شبكة العلاقة بينها.

الكلمات المفاتيح: إعجاز - بشارة - زكريا - يحيى - نبوّة.

تمهيد:

يسعى هذا البحث إلى الوقوف على قصة زكريا -عليه السّلام- ورحمة الله التي تجلّت في تحقيق مبتغاه؛ فأهمية البحث تنبثق من الإعجاز والبشارة؛ المتمثّلين في ولادة يحيى. وعلى ضوء ذلك تهدف الدراسة إلى:

- بيان البشارة والإعجاز المتعلّق بها.
- الكشف عن الصلة بين قصة يحيى وقصة عيسى عليهما السّلام من جانبي الإعجاز والبشارة.
- بيان جماليات هذه البشارة من حيث وقوعها، ومن حيث نظمها وما تضمنته من كلمات عميقة الدلالة.
- تجلية الاتساق الدلالي القائم على سيميائية الاسم (يحيى) وما يتصل بهذا الاسم من كلمات ذات علاقة وثيقة به سيميائيًّا.

من خلال هذه الأهداف، تنقسم الدراسة إلى تمهيد، ومحورين أوّلها: يحيى وعيسى عليهما السّلام. ويتطرق إلى الصلة بين قصتيهما من جانبي البشارة والإعجاز، والآخر: سيميائية اسم يحيى. ويتعرّض إلى الدلالات المنبثقة من هذا الاسم. وعليه تتبنّى الدراسة المنهج السيميائي عمادًا لها، مع الاستعانة بما يفيد الدراسة من أدوات تنتمي إلى مناهج أخرى.

السيميائية من العلوم التي تهدف إلى دراسة العلامة ودراسة اللغات الطبيعية منها والاصطناعية؛ فهو علم ينصبّ على دراسة الخصائص التي تمتاز بها علاقة العلامة بمدلولاتها. (بو خلخال، 1995م، ص75)، ناهيك عن دراسة الأنماط والأنساق العلاماتية غير اللسانية (جيرو، 1992م، ص23)؛ فالسيميائية -في وجه من وجوهها- تبحث في كلّ الإشارات والعلامات التي تتصل فيما بينها لتمنح اللفظة خاصية ذات دلالات مترابطة.

ورد اسم نبيّ الله (يحيى) في غير موضع من القرآن الكريم، إلا أنه قد ورد مرتين ورودًا ذا خصوصية؛ أحدهما في سورة (آل عمران) تحديدًا في الآية التاسعة والثلاثين، والأخرى في سورة (مريم) في الآية الثانية عشرة. وفي كلا الموضعين جاء في سياق إجابة الدعاء، والبشارة لزكريا لقاء دعوته ربَّه بأن يهب له وليًّا وذريَّةً صالحة، بصورة إعجازية تدلّ على قدرة الله على كلّ شيءٍ. وعلى الرغم من أنّ جميع أنبياء الله تعالى -عليهم السلام أجمعين- المذكورين في القرآن الكريم قد وردت أسماؤهم في سياق المُـخْلَصِين، إلا أنّ الله تعالى قد جعل لبعضهم فضلا على بعض؛ ومن ذلك أنه اختصّ نبيَّه موسى بكلامه، وآتى النبيَّ سليمان ملكًا لم يؤتَه أحدٌ من بعده، كما أنه -تبارك وتعالى- وهب إبراهيمَ إسحاقَ على الرغم من أنّ إبراهيم كان -حينئذٍ- شيخًا كبيرًا، وزوجُه كانت

عجوزًا. وجماع هذا ما جاء في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾سورة البقرة: آية 253﴾.

المحور الأوّل: يحيى وعيسى، عليهما السّلام:

إنّ الله -تعالى- اختصّ اثنين من أنبيائه بالتسمية من لدُنْه؛ وهما عيسى عليه السّلام، ويحيى عليه السلام. أما عيسى فقد بُشرتْ به مريم ابنة عمران في صورة إعجازية ومفاجئةٍ لها، وهي المرأة البتول؛ وهو ما يظهر جليًّا في غير آية من القرآن الكريم، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾سورة البقرة: آية 45﴾.

وأما يحيى فقد جاء ذكره في غير موضع كذلك، إلا أنّ ذكر اسمه -قبل ولادته- جاء مرتين؛ إحداهما في قوله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) (سورة آل عمران: آية 39). والأخرى في قوله تعالى: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) ﴿سورة مريم: آية 7﴾.

ويظهر أن هناك صلة -في جانب الإعجاز ومن ثَمَّ البشارة- بين عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا؛ فضلا عن صلة القرابة والنسب؛ فإن زكريا عليه السلام تضرّع إلى ربّه ودعا دعاءه -وقد بلغه الكِبَر- بعد أنْ كان يجد رزقًا لا يعلم هو مأتاه، عند مريم ابنة عمران، وهي في المحراب تحت رعايته بعد أن كفّلها الله إياه؛ فأجيبت دعوته وحصلت له البشارة، ثم تلتها -بحسب ترتيب الآيات الكريمة في القرآن الكريم- بشارةُ الملائكةِ مريمَ بعيسى؛ قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿33﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿34﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿35﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿36﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ

يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿37﴾. (سورة آل عمران)،·وقد جاء الترتيب في سورة مريم كما هو هنا.

وهذه الآيات تظهر إرهاصاتِ معجزة عيسى ابن مريم قبل أن تأتي البشارة به ثم المعجزة بحمل أمه به. وهي إرهاصات ظهر في سياقها زكريا -عليه السلام- ظهورا يرهص بدوره للبشارة بيحيى ومعجزة الحمل به ثم ولادته حتى بلوغه سنّ التكليف وحمل الرسالة.

ثم تستأنف الآيات استئنافًا يظهر فيه يحيى بشارةً من الله إلى زكريّا، لا بالولد وحسب، وإنما بنبوّة هذا الوليد. وهذا ما في قوله تعالى:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿38﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿39﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿40﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿41﴾ (سورة آل عمران)

هذا ما يتعلّق بالبشارة بحيي، أما البشارة بعيسى ففي قوله تعالى تِلْوَ هذه الآيات: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿42﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿43﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿44﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿45﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿46﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿47﴾. (سورة آل عمران).

إنّ الفارق بين البشارتين، والإعجاز فيهما، وتسمية المولودين واقعةٌ من حيث النداء والتضرُّع إلى الله من قِبَل زكريّا؛ فالبشارة بعيسى كانت مفاجئة لامرأة غير متزوجة، ولم يمسسها بشر، ولم تكن قد دعتْ الله أن يهبها ابنًا، فهي لم تكن بأية حال تنتظر حَمْلا ولا ولدًا. أما البشارة بيحيى فإنّها كانت منتظرة، لكن ربما من جهة الولاية لا من جهة النسل على وجه القطع، على الرغم من أنّ احتمال أنّ الدعاء من أجل الولد وارد جدًّا وهو ما ترجحه الآية الوارد في سورة آل عمران في قوله تعالى:

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾سورة آل عمران: 38﴾.

المحور الثاني: سيميائية اسم يحيى:

ومهما يكن من حال، فإنّ اسم الوليّ المولود المنتظر (يحيى) يستوقف المتأمّل في الآيات الكريمة الخمس عشرة من سورة مريم. وهنا وقفة تأمل وتدبُّر في مفتتح هذه السورة الكريمة وما يلي المفتتح من آيات ذات صلة تتعلّق بالأعجاز في البشارتين؛ قال تعالى في سورة مريم:

﴿ كهيعص ﴿1﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿2﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿3﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿4﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿5﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿6﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿7﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿8﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿9﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿10﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿11﴾ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿12﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿13﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿14﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿15﴾. (سورة مريم).

لقد بُدئت السورة بما اصطلح على تسميته بـ(الحروف المقطّعة)، وهي التي ذهب المفسرون في تفسيرها غيرَ مذهب؛ فمنهم من رأى بأنّ الحروف المقطعة لا يعلمها إلّا الله؛ لذا لم يُفسّروها، فرودا علمها إلى الله، وآخرون فسّروا هذا الحروف، فاختلفوا في ما تحمله من معان، ناهيك عن علماء يرون أنّ هذه الحروف؛ جاءت في أوائل السوّر؛ إعجازًا للخلق، وبيانا لعدم قدرتهم على معارضة الإعجاز القرآني، مع أنّ هذه الحروف جزء ممّا يتخاطبون به، وعليه يذهبون إلى أنّ كلّ سورة بدأت بالحروف المقطّعة؛ هي تذكير بانتصار القرآن، وبيان لإعجازه (ابن كثير، الجزء الأول، 1999م، ص157 - 159).

ولعلّ من أبرز ما ورد من الأقوال فيها ما جاء في لسان العرب، حيث نقل ابن منظور الآتي: "روى أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب وحكمي بن عمير وراشد بن سعد قالوا: المر والمص

والم وأشباه ذلك، وهي ثلاثة عشر حرفًا، أن فيها اسم الله الأعظم". (ابن منظور، الجزء 1، 1999م، ص20)، و(ابن كثير، الجزء الأول، 1999م، ص157)، فهذا القول يستحضر الحديث الشريف: "والذي نفسي بيده؛ سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعيَ به أجاب". (الترمذي، د.ت، ص78). وهذا يدلّ على أنّ أمر النداء وإجابته ليس أمرًا عاديّا، وإنما كان معجزة.

ثم أعقب الحروفَ المقطّعة بَسْطٌ لحال نبيّ الله وعبده زكريّا الذي أحسن نداء ربّه، ووُفّق في عرض حاجته على وجه أظهر ضعفه وعجزه وقلّة حيلته، فضلا عن صلاحه وتُقاه وحرصه على خدمة المؤمنين؛ فهو نبي من الأنبياء الذين أرسلهم الله-عزّ وجل- إلى بني إسرائيل، وكان نجارًا، فيأكل من حرفته في النجارة (ابن كثير، الجزء5، 1999م، ص211)، وهو ما هيأه لأن يُنزل الله -تبارك وتعالى- رحمته عليه.

إن مبعث النداء والسؤال أن زكريا النبيَّ الذي ورث النبوّة من آل يعقوب، قد شاخ ولم يكن له -قبلَ النداء- عقبٌ، وأنّ إيمانه بقدرة الله وبفضله راسخ، وهو الذي ما جرّب قطّ شقاءً بدعوة دعاها ربّه، وأنّه -وقد شاخ- صار يخشى مواليه من ورائه أن يضيّعوا ميراثه. أما الطلب في النداء فمحدد بثلاث سمات؛ وهي أن يهب له ربُّه وليًّا، وأن يرثه هذا الوليُّ ويرث من آل يعقوب، وأن يكون رَضيًّا.

والوليّ في مادة (وَلِـيَ) المعجميّة يدلّ على الوارث، وعلى النصير والحليف. (ابن منظور، الجزء 15، 1999م، ص401)، هذا ملخصّه في لسان العرب؛ فالموالي هم ورثة الرجل، وأبناء عمّه، والولي والمولى في كلام العرب يحمل المعنى ذاته، ومنه: قوله تعالى: وإني خِفْتُ الموالي مِن ورائي". (ابن منظور، الجزء 15، 1999م، ص401)، وفي هذا ما يرجح أنّ زكريا -عليه السلام- كان يرجو أن يرزقه الله ولدًا وارثًا من ذريّته؛ لأنّه سيكون حينئذٍ أحرى بالحفاظ على الإرث، شرط أنْ يكون (رضيّا).

والإرث في مادة (ورث) يدل -في عموم الحال- على المال، إلا أن زكريا قد ربط وراثة المولى المنشود بالوراثة من آل يعقوب وليس فقط من إرثه الشخصي الذي قد يكون مالا. وقد ذهبت بعض آراء المفسرين إلى أن المراد وراثة المال ووراثة النبوّة، وإلى هذا ذهب ابن كثير، ثم أورد عدة روايات في هذا الشأن، منها: "حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا جابر بن نوح، عن مبارك، عن الحسن قال: قال رسول الله صلّى الله عيه وسلم: "رحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من ورثة ماله، حين

يقول" (هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ)، (ابن كثير، الجزء 5، 1999م، ص 213).

ولكن محور الإعجاز قائم على وراثة النبوة أولا، وبالتالي وراثة المال ما دام الوارث سيكون ولدا يحيا حتى يكون غلاما يبلغ سن التكليف بحمل الرسالة. لذا يجيب ابن كثير على أنّ وجه خوف زكريا-عليه السّلام-يتمحور في خشيته من تصرّف الناس بعده تصرّفًا سيئا، فكان سؤاله للمولى-عزّ وجل-بأن يرزقه ولدًا؛ يكون نبيًا؛ ليسوس الأمور بالنبوة، لا يتوافق مع رأيه بل هي خشيته من وراثتهم له ماله (ابن كثير، الجزء 5، 1999م، ص212).

ثم إنّ الموالي مهما كانت صفتهم وقرابتهم من المرء قد يتنازعون فيختلفون فيضيّعون الميراث حتى وإن كان نبوّةً فتنقطع هذه النبوّة في آل يعقوب وهو ما كان زكريا -عليه السلام- يخشاه ويسعى لقطع أسبابه بطلب الولد. فالموالي هم من يلون في النسب مثل: أبناء العم، و "من ورائي" أي الخوف على إضاعة الدين بعد موته، مثلما شاهد هذا الأمر في بني إسرائيل، وتبديلهم الدين، "وكانت امرأتي عاقرا" أي لا تلد، "فهب لي من لدنك"، هبة وعطاء يتمثّل في الولي (الابن) (السيوطي، د.ت، ص396).

و(الرضى) في الدلالة المعجمية يدلّ على ضد السُّخْط، وعلى القبول والطاعة، والموافقة والاستحسان؛ (ابن منظور، الجزء 5، 1999م، ص235)، قال ابن الأعْرابي: "الرَّضِيُّ المُطيعُ، والرَّضِيُّ الضامن". ونقل ابن منظور: "رجلٌ رضيّ من قَوْمٍ رضًى: قُنْعانٌ". (ابن منظور، الجزء 5، 1999م، ص236). ولمّا كان زكريا قد شاخ وكانت امرأتُه عاقرًا فإنّ أهمية كون الوليّ "رضيًّا" تبرز من خلال الدلالة المعجمية، خاصة ما يتعلق بالضمان والقناعة. وفي هذا ما يجعل السؤال والطلب غير منصبٍّ على ولدٍ من نسل زكريّا بالضرورة، فالمهم أن يجعله الله رضيّا. أما إن كان ذلك الوليّ من نسل زكريا فالمهم ألّا يكون ساخطًا غير رضيّ ليكون مهيّأ لحمل النبوّة؛ لأنّ من أبناء الأنبياء من لم يكن رضيا. ولعلّ ما يعضد هذا ما ورد على لسان زكريا عليه السلام: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾سورة آل عمران: 38﴾.

وبالعودة إلى سورة مريم نجد الإجابة للنداء -من قبل الملائكة- مُحمّلة بالبشارة: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿7﴾. وهنا يبرز الضمير في (إنّا) مفترضًا تساؤلا: أهو ضمير التعظيم الذي يليق بالله القدير، أم هو ضمير الجمع للملائكة الذين نادوا زكريا؟ وبناء على ما ورد في سورة آل عمران من قوله تعالى ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿39﴾ يبدو جليًّا أن الضمير للملائكة الشهود الذين شهدوا قيامه يصلّي في محرابه، وهم بالتالي شهود على البشارة والإعجاز. (الشوكاني، الجزء 1، 1992م، ص558-559).

ثم تبرز الكلمات المفاتيح لفهم قَدْر البشارة وعظمة الإعجاز؛ وهي الكلماتُ (غلام)، (اسمه: يحيى)، (ليس له شبيه) التي توحي بأنّ البشارة كانت بشارةً بمولود من صلب زكريّا، وأنها ليست بشارة بمولىً أو بوليّ يُلحَق بزكريا. وهنا عدة أسئلة منهجية ذات دلالات مؤثرة في مسار التأمل:

ما الفرق بين البشارة "بغلامٍ" والبشارة بمولود؟ وما أهمية أن تكون التسمية من لدن الله سبحانه؟ وما قيمة الاسم ودلالته إذ سمّى الله المولود (يحيى)؟ وما أهميّة الأسبقية بالتسمية إذ لم يجعل الله اسم يحيى لأحد من قبلُ؟

تشير دلالة (غلام) المعجمية إلى أنّه الغُلامُ الذي بدأ شاربه في الظهور، كما تُطلق مفردة الغلام- أيضا-على المولود حتى يشيب، وزاد ابنُ سيده على هذا بقوله أنّ العرب تُسمّي الكهل بالغلام النجيب، وهو منتشر على ألسنتهم (ابن منظور، الجزء 10، 1999م، ص111)، ويمكن تعيين حدود كلمة (غلام) الدلالية -فيما يعني هذه الدراسة- في أربع دلالات لغوية، وهي:

- الكهل النجيب.
- الوَلَدُ في سنّ التكليف، (الطارُّ الشارب).
- الولد من حين ولادته حتى كهولته.
- الأَجيْرُ أو الخادِم.

وبناء على هذه الدلالات اللغوية يمكن أن يكون المُبشَّر به مولىً أو خادمًا أجيرًا لزكريا -عليه السلام- ينهض بأعباء النبوّة ويواصل تبليغ قيمها ورسالتها. وقد ذهب إلى معنى (الأجير أو الخادم) بعض من نقل الطبريّ آراءهم، في وقفته التفسيرية للآية، إلا أن المفسرين -ومنهم الطبري- يكادون

يجمعون على أن المراد بكلمة "غلام" في الآية، الشاب البالغ القادر على حمل التكليف. وقد ذهب إلى هذا الطبريُّ نفسه (الطبري، الجزء 15، 2001م، ص 461-467).

وعلى الرغم من شبه الإجماع هذا فإنّ الإعجاز في هذه البشارة لم يظهر كلُّه بعدُ؛ لأنّ دلالة الغلام ذات ارتباطات بما بعدها في اتساق دلالي قائم على سيميائية الاسم (يحي). فالغلام طارُّ الشارب غلامٌ قد وصل إلى سنّ التكليف والقدرة على حمل الأعباء، وهو داخلٌ ضمنًا في دلالة الغلام بأنّه "من حين يولد إلى المشيب" التي أوردها ابن سيده؛ (ابن سيده، 2000م، ص537) وهذا ما يعني أنّ الوليد المُبشَّر به سيبلغ سنّ التكليف.

وتعضد هذا المذهب دلالة الاسم (يحيى) التي تشير إلى الحياة وأنّ المُسمَّى باسم يحيى يرجى أن تكتب له الحياة؛ قال الزجاج (الجزء 3، 1988م، ص320): "سمّي يحيى لأنه حيي بالعلم والحكمة التي أوتيها"، كما تشير إلى أنّ النبوّة ستبقى حيّة في آل يعقوب بتكليف يحيى بن زكريا بحملها. ونجد في الآية الثانية عشرة من سورة مريم ما يعزز هذا؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿12﴾، فهنا تتطابق دلالة الاسم يحيى مع حال النبيّ يحيى بن زكريا الذي كلّفه الله تعالى بحمل الكتاب وهو صبيّ. وهنا تكون دلالة الاسم يحي قد أدّت وظيفتها الإعجازية؛ إذ تظهر في المعجم العربي من خلال بروز الضدية، فالحياة ضد للموت، والحيُّ ضدٌّ للميت (الجوهري، 1987م، ص699).

وبالنظر إلى البشارات الثلاث (البشارة بإسحاق، والبشارة بيحيى، والبشارة بعيسى) ومقارنتها بعضها ببعض يظهر جليًّا أن إسحاق سيأتي من ورائه يعقوب، وهو ما يعني استمرار النبوّة في عقب إبراهيم لأنهما ومعهما من وراءهما من أبناء إبراهيم. كما أنّ البشارة بإسحاق تضمنت البشارة بنبوّته صراحة؛ وذلك ما يظهر من قوله تعالى ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾. (سورة الصافات، آية 112). وقوله: ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾. آية رقم (سورة هود: آية 71). والحديث هنا مقصور على الأبناء الذين بُشرَ إبراهيم -عليه السلام- بهم على الرغم من عدم توافر الأسباب المنطقية المادية للحصول على أبناء، وإلا فإن إبراهيم نفسه قد بُشّر بإسماعيل بعد دعوة دعاها حيث قال تعالى: {وقال إني ذاهب إلى ربّي سيهدين ﴿99﴾ ربِّ هبْ لي من الصالحين ﴿100﴾ فبشّرناه بغلامٍ حليم ﴿101﴾. سورة الصافات. وهذا ما يعطي البشارة بيحيى

زخمًا إعجازيّا على البشارة بإسحاق، ولا سيّما أن إبراهيم وزوجه لم يكونا عقيمين، وإنما كان هو شيخًا كبيرا، وكانت هي عجوز وإنما ليست عقيمة كزوج النبيّ زكريا، عليهم السلام أجمعين. وأما حياة إسحاق وحمله النبوّة فإنّها منتظرة وواضحة؛ لأن البشارة بإسحاق أُتْبعتْ بالبشارة بيعقوب من ورائه.

وإن تسمية الله تعالى المولود من لدُنْه علامة من علامات الإعجاز الذي يصبغ سورة مريم عامة؛ لأن تسميته تدلّ على مدى عناية الله به، وعلى سعة رحمة الله تعالى إذ استجاب نداء عبده زكريا حتى أنّه طمأن زكريا -من خلال التسمية بقوله ﴿اسْمُهُ﴾.

ثم إن البشارة تُتوّج بقوله تعالى ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾. وفي هذا إشارة واضحة على شدة الإعجاز، وعلى أن هذا الإعجاز غير مسبوق على الرغم من عظم مقدرة الله تعالى.

الخاتمة:

تتبّع هذا البحث سيميائية الاسم من خلال اسم (يحيى)، وتلمّس الصلات الدلالية السيميائية بين (يحيى) وما اتصل بها لفظيّا في قصة إجابة الله -تبارك وتعالى- نداءَ عبده زكريا، عليه الإسلام. وعمد البحث إلى مضاهاة قصة ولادة يحيى والبشارة به بقصة ولادة إسحاق وعيسى ابن مريم والبشارتين بهما.

وقد توصل تأمل الآيات ودلالات الكلمات وعلاقاتها السيميائية إلى فاعلية التأمل الدلالي في سيميائية الاسم وما يتصل بها من أوصاف وأفعال وحوادث. وبناء على هذه النتيجة فإن المنهج السيميائي اللغوي حقيق بأن يعتمد في تأمل آيات القرآن الكريم، ولكن ينبغي وجوبًا أن يكون هذا التأمل مبنيًّا على أقوال المفسرين لا أن يكون جزافًا واجتراء على القرآن الكريم، خاصةً ممّن لا يملك أدوات التفسير والتأويل.

وجدير بالذكر أنّ هذا البحث لم يخرج عن أقوال المفسرين، وإنما نظر فيما ورد في غالب التفاسير، وما أورده بعض المفسرين من آراء وأقوال في الآيات محل النظر والتأمل، اللهم إلا ما كان من جهد الربط بين الأقوال -بعد جمعها- وتقريبها إلى بعضها، ومقاربة الآراء والدلالات المعجمية التي لا تخالف مبدأ التحوّط في تدبّر آيات القرآن الكريم، فضلا عن استدعاء بعض الآيات

الأخرى من خارج سورة مريم، خاصة ما يتعلق بقصة البشارة بيحيى بن زكريا، وقصة البشارة بعيسى ابن مريم، وقصة البشارة بإسحاق بن يعقوب. وعلى الله التكلان.

مصادر البحث:

- القرآن الكريم.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1987م.
- الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم، معاني القرآن وإعرابه، الجزء 3، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1988م.
- ابن سيده، أبو الحسن علي، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000.
- السيوطي، جلال الدين محمد، القرآنُ الكريم، وبهامشه تفسير الإمامين الجليلين؛ العلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلِي، والعلّامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تقديم ومراجعة: سوار، مروان
دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.
- الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير، الجزء الأول، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، القاهرة، د.ط، 1992م.
- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، حكم على أحاديثه وآثاره وعلّق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، د.ت.
- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1999م.
- الطبري، أبو جعفر محمد، تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء الخامس عشر، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية دار هجر، ط1، القاهرة، 2001م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب - محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي/ مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط3، 1999م.

- جيرو، بيير، ترجمه عن الفرنسية منذر عيّاشي، علم الإشارة – السيميولوجي، دار طلاس، دمشق، 1992
- بو خلخال، عبد الله، مصطلح السيميائية في البحث اللساني العربي الحديث / النشأة والمفهوم والتعريب (السيميائية والنص الأدبي)، أعمال ملتقى عنابة، باجي مختار، 15-17 ماي، الجزائر، 1995م.